في التراث الأنثروبولوجي الكولونيالي المغاربي

نحو قراءة نقديةتركِيـّة في علم المغرب

د. مختار مروفل - جامعة معسكر- الجزائر

الملخص :

إن التعرف على المنطقة المغاربية من خلال مسيرة بيرك الذاتية والمعرفية يعد أمر مسلم به لا غرو في ذلك فالرجل يعد شاهد مرجعيا ومعلما رئيسيا لكل من يود التعرف على التشكيلات القبلية المحلية التي امتلكت فضاء الشمال الإفريقي من جهة. أو دراسة التراث الايديولوجي والعلمي للفضاء المغاربي الذي نشأ منذ مطلع المرحلة الكولونيالية من جهة أخرى، فبيرك يعد متبع جيدا ومطلع واسعا في هذا المجال. من هنا فإننا سنعنى في ورقتنا بهذين البعدين الأساسيين اللذان يمثلان محطتين مركزيتين من تراث ج. بيرك المتشعب، متسائلين في ذلك بسؤالين كبيرين، كيف يمكننا اليوم أن نستفيد من معرفة الرجل حول التشكيلات المجتمعية التي تكون منها المغرب الكبير؟ وكيف نقرأ ونقيم شهادة بيرك عن ذلك التراث الغزير المكون من الوثائق الاثنولوجية والجغرافية والموسوعية بشكل عام؟

Abstract :

Our paper will address two key questions of Berque's vast and complex heritage: How can we benefit today from men's knowledge of community formations? And how to read and evaluate the testimony of Berque about that rich heritage component ethnological and Geographical documents and encyclopedic in general? We would like to approach this subject in the textual way Berque's that production Is already worth us according to what we believe, this kind of work, in order adjust its connection and identify its features, will greatly benefit us in our search for the answers to be reached in this paper.

مقدمة:

إنه لمن الضروري بالنسبة للملاحظ للشأن المغاربي والدارس لمورفولوجيته الاجتماعية أن يلج الى هذا الفضاء عبر بوابة جاك بيرك الأنثروبولوجية، فالأعمال التي خلفها الرجل في هذا المقام سواء ا كانت ذات فائدة خالصة للمغرب الكبير أو كانت رسالة موجهة لأوربا عن تميز واختلاف ذلك الفضاء الشاسع عن ربوعها، فهي على كل حال قد جعلت من المغرب

الكبير مرجعا رئيسا للدراسات الأنثروبولوجية بالجامعات ومراكز البحث بالغرب ككل. إن المتتبع لسيرة بيرك الذاتية والموضوعية (1910-1995) وما تمخض عنها من معارف ثرية على شتى الصعد، شملت كل من المدن والإسلام المغاربي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا الحضرية، يدرك بحق أهمية تلك الشخصية وما لها من أفضال على المعارف الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا التي تخص الشمال الإفريقي بوجه خاص.

إن بيرك ابن فرندة (الجزائر) الذي أوكله أبوه منذ صغره لأحد شيوخ القبائل لمدة ستة أشهر حتى يتعود وينشأ على حياة البداوة، ثم قضائه بعد ذلك لأزيد من عشرين سنة في المغرب الأقصى كمسؤول على شؤون الأهالي، ومراكمته بموجب ذلك للخبرة وللتجربة الميدانيتين اللتان تشكلتا لديه أثناء تفاعله اليومي وصلته المباشرة بالأهالي، جعل منه-من وجهة نظرنا- رجل المغرب الأول خلال القرن المنصرم وذلك من حيث تبني المقاربات العلمية الصارمة لدراسة المنطقة وتحليل نسوجها ونصوصها.

لقد بذل بيرك في هذا السبيل جهودا مضنية كبيرة، ألغت أمامه الكثير من الحواجز والفواصل التي غالبا ما تقف حجرة عثراء أمام الباحث الأنثروبولوجي الذي يود الاقتراب بعمق من مبحوثيه. فهو يقول عن علاقته باللهجات الدارجة بالمنطقة: "لقد تعلمت اللغة المغاربية مثلما تعلمت لغتي الأم هذا على الرغم من أنني كنت أقل تحكما فيها مقارنة بنظرائي المغاربة، لكن اليوم أستطيع أن أجزم وأقول "أنني أتحكم في جميع اللهجات والكل أصبح يفهمني عندما أتكلم معه"(بتصرف)(L.Ben Salem, 1993 :pp.12-13)[1] وعن اللغة العربية يقول: "هي لغتي الثانية، جسر ج. بيرك بذلك المسافة بينه وبين الأهالي، فهو اليوم قد صار واحد منهم لا يتميز عنهم في شيء يشاركهم تفاصيل حياتهم اليومية ويختبر عن كثب عاداتهم وتقاليدهم ومنتجاتهم المختلفة. لقد استطاع الرجل بتلك الحنكة سبر الأغوار والأعماق وملامسة الجذور والبواطن التي تتشكل منها البنية المجتمعية للمغاربة بما في ذلك الدلالات والثقافات المكونة للمنطق وللدهنيات العامة.

وبناء عليه فإن التعرف على المنطقة المغاربية من خلال مسيرة بيرك الذاتية والمعرفية يعد أمر مسلم به، لا غرو في ذلك فالرجل يعد شاهد مرجعيا ومعلما رئيسيا لكل من يود

التعرف على التشكيلات "القبلية" المحلية التي امتلكت فضاء الشمال الإفريقي من جهة. أو دراسة التراث الايديولوجي والفكري للفضاء المغاربي الذي نشأ منذ مطلع المرحلة الكولونيالية وبعد الاستقلال من جهة أخرى، فبيرك يعد مجددا متميزا ومطلع واسع المعارف في هذا المجال.

من هنا فإن ورقتنا ستُعنى بهذين البعدين الأساسيين اللذان يمثلان في اعتقادنا، محطتين محوريتين من تراث ج. بيرك المتشعب متسائلين في ذلك بسؤالين رئيسيين: كيف يمكننا أن نستفيد اليوم من معرفة الرجل الخاصة بالتشكيلات المجتمعية التي تكون منها المغرب الكبير؟ وكيف نقرأ ونقيم شهادة بيرك عن ذلك التراث الغزير المكون من الوثائق الاثنولوجية والجغرافية والموسوعية بشكل عام؟ إننا نود أن نقارب هذا الموضوع بالطريقة الاستقصائية النصية، ذلك أن إنتاج بيرك الواسع الثراء يستحق منا بالفعل بحسب ما نعتقد، هذا النوع من العمل وذلك من أجل ضبط بوصلته وتحديد معالمه لنقف في البداية عند مسار بيرك الذاتي والعلمي، فإن ذلك سيفيدنا كثيرا في بحثنا عن الأجوبة المطلوب التوصل إليها في هذه الورقة.

جاك بيرك السيرة والمسيرة:

جاك بيرك هو من مواليد مدينة فرندة الجزائرية سنة 1910 التي كان يعمل بها والده أوجستين بيرك كمسؤول إداري بعد حصوله سنة 1936 على شهادة الأدب الكلاسيكي، رفض بيرك العمل بالتدريس وفضل الذهاب الى الجزائر مقاطعا بذلك دراسته التي ابتدئها بعد عام ونصف في السربون ، بعث به والده الى الهضاب العليا بمنطقة الحضنة ليعمل ضمن الإدارة الاستعمارية، لقد استغل بيرك هذه الوظيفة ليجمع من خلالها المادة الأساسية التي سيكتب منها أول مقال له الذي نشر لاحقا في المجلة الافريقيا، في سنة1934 وفي غمار عمله كمراقب لدى محاكم الأهالي الذي كا بيرك يحبذه ويستمتع به، نشر ولأول مرة سنة 1936 كراسة بعنوان études des contrats nord-africains لقد استمر هذا العمل المزدوج (الإداري والعلمي) معه مدة عشرين عاما، فأصبح بذلك رجل مكاتب العرب التي

لم يكن بالمناسبة يطمئن لها كثيرا وذلك بسبب نهجها السكولاستيكي الأكاديمي المتكلف، فهو رجل معتز بنفسه ويفضل الحياة المعرفية الحرة، قال عنه زميله G.H. Bousquet "إن بيرك رجل يحب مهنته ولا يود الاشتغال بالتعليم الجامعي"(بتصرف)[2] فعمله في الرقابة المدنية بالمغرب تحت الانتداب الفرنسي، كان جد مواتي له لإجراء الملاحظات واستجماع المواد الأنثروبولوجية التي لم تكن متاحة لكثير من الإثنولوجيين في وقته. منذ ذلك الحين وبيرك يعمل بتفان على انجاز مشروعه الخاص بمجال أنثروبولوجيا الحقوق والذي شمل العقود التجارية والرعوية في المغرب[3]. لقد كان متأثرا في هذا النهج بأستاذه Louis Gernet الذي كان يتابع بانتظام محاضراته بكلية الآداب في الجزائر العاصمة.

لقد أنضجت التجربة المهنية لديه معرفته التفصيلية والعميقة بالمغاربة الأهالي، فهو مثلما أسلفنا عين كمراقب للمحاكم المدنية بالمغرب من سنة 1937 الى سنة 1936 ثم نائب بلدي (1940-1937) بعدها التحق بالخدمة السياسية لحماية الرباط (1943-1945) ثم مدير مكتب الدراسات (1945-1947) وذلك قبل أن يعزل بسبب كتاباته وبسبب أيضا الإصلاحات التي أدخلها على الريف المغربي، بعدما ترك وظيفته سنة 1953 استقر به المقام في إحدى المقاطعات المجهولة بالأطلس الكبير، حيث انكب بيرك على كتابة أطروحته المعروفة باسم Les Structures Sociales du Haut-Atlas سنة1955، لقد فتح له هذا الانجاز أبواب الكوليج دو فرانس الذي أصبح يرأس فيه كرسي التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر لمدة ربع قرن، كما كان يشغل في الوقت ذاته منصب مدير الدراسات بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا أين أشرف على العديد من رسائل الدكتوراه. بعد عامين من عمله بكوليج دو فرانس عين بيرك خبيرا تربويا لدى UNESCO في كل من مصر ولبنان. تقاعد بيرك عن عمله سنة 1980 ليجد نفسه بعد ذلك مستشارا لوزارة التربية الوطنية[4]، لكن بالرغم من ذلك فإن تلك الوظائف المتراكمة الكثيرة لم تثنيه عن انجاز مشروعه الكبير والمتمثل في ترجمة معاني القرآن الكريم، الذي بدأه بيرك سنة 1982 وانتهى منه سنة 1995 أي قبيل وفاته مباشرة إذ وافته المنية في يوم 27 جوان سنة1995 وذلك اثر أزمة قلبية ألمت به وهو جالس يعمل داخل مكتبته.

إن تراث بيرك الفكري الثري الذي ابتدأ بالملاحظة الأنثروبولوجيا وبالعمل الميداني وانجاز الدكتوراه ثم العمل الاكاديمي في كل من الكوليج دو فرونس وفي EPHE الى غاية سبعينيات القرن الماضي، واهتماماته في آخر المطاف بالثقافة الكلاسيكية وبالأخص الإسلام وترجمة معاني القرآن الكريم، إنما يدل على أن ذلك الترتيب خصوصا في مرحلته الأخيرة قد ارتبط بخلفية جد عميقة ذات بعد وجداني، فلقد حزّ في نفس الرجل كثيرا إغماطه لدور جماعة الإخوان المسلمين في مصر وعدم تقدير لمكانتها في كتابه الذي ألفه سنة 1967 ويحمل عنوان Egypte :Impérialisme et révolution. فلقد عبر بيرك بوضوح على ذلك الندم في مذكراته الشخصية[5].

مكتب العرب وتشكل التجربة الاثنوغرافية:

إن مكتب العرب الذي شغل به بيرك أول منصب له كمراقب مدني، لم يغفل أهميته وقيمته العلمية هذا على الرغم من أهدافه الاستعمارية ومحدوديته في مجال التحقيق، فالضباط الشباب والإداريين لم يكونوا حينها اكثر عمقا في تحقيقاتهم ولا في عملهم الميداني، لذا قرر بيرك أخذ المبادرة بنفسه والبحث عن الحقيقة لوحده[6]، ليشرف بذلك بنفسه "على كل الناس وعلى كل شيء"، لقد كرس بيرك جهود مضنية أثناء عمله بهذا المكتب حتى أطلق على نفسه ذات مرة اسم "رجل مكتب العرب". ففي مقال له سنة 1975 بعنوان "Entrée dans le Bureau Arabe" قدم بيرك شهادة مفصلة عن ذلك الدور الذي تميز به في مكتب العرب، مقاله المعنون "خمس وعشرون سنة ومائة من السوسيولوجيا المغربية" سنة 1965، هو الآخر لم يغفل دور مكاتب العرب في الرصد والتوثيق المفصل لشؤون الأهالي في شتى المجالات والصعد والذي تحمل هو فيه مهمة الإشراف على عدد من الملفات، نذكر منها على وجه الخصوص ملف "الشكاية" وملف أعياد العرب وملف الحرائق.

للعلم فإن مهمة بيرك المدنية لم تكن لتتنكر لإطارها العسكري الذي وظفت فيه، فالشاب ذي الخمس والعشرين ربيعا الذي كان يجوب على صهوة فرسه أراضي بني

مسكين، كان يعمل برفقة فرسان البرانيس الزرق[7]. فلا شيء يدل بذلك على أن "رجل مكتب العرب" لم يكن ضابطا، بدليل أنه لما أزعج مسؤوليه غضبوا منه ونفوه بأمر عسكري الى إحدى النقاط المجهولة بأقصى الأطلس، عند هذه المحطة بالذات يكون الخلاف قد بلغ أوجه بينه وبين الإدارة الاستعمارية، إذ رفض بيرك تلك الأحكام المسبقة التي يرتبها العسكريين على المدنيين، وانتقد بشدة مكتب العرب على الرغم من أهميته واستبشر باستقلال الفضاء المغاربي حيث أعلن في ذلك قائلا: "أن الاستعمار الفرنسي قد بلغ مداه وأن من أنكر ذلك علي يلقمني اليوم بالحجر"(بتصرف)(116:1975)[8] لقد أدان بيرك ظلم الأعيان للأهالي ووصفهم بأنهم قد "التهموا القبيلة"، كما استهجن غطرسة المعمرين واستغلالهم الفاضح لعمالة الأهالي، كل ذلك وبيرك يقاوم ويناور من موقعه كأحد ورثاء لضباط مكاتب العرب الذين اعتبروا دمج الأهالي ضمن العدالة الفرنسية وضمن روح الخدمةالعمومية وإعادة تنظيم لمخزنهم القديم هو حد أدنى ينبغي للدولة الفرنسية ذات السيادة أن توفره لهم(نفس المرجع: ص،114)[9].

لا غرابة في ذلك فموظفو مكتب العرب الذين نعتهم بيرك بالنزعة الانفصامية المستحكمة في نفوسهم، ووطنيتهم ذات الخلطة الغريبة التي تجمع "بين الشوفينية الفرنسية من جهة وبين الانتماء الى الحاضرة العربية من جهة أخرى"، قد جعلت منهم أناس يعتقدون أن العملية الاستعمارية هي سرمدية، فلم يكن ليخطر ببالهم بأنها فانية وأن مصيرها الى الزوال. وسط هذا الخلاف الحاد بينه وبين الإدارة الاستعمارية ما الذي كان في إمكان بيرك فعله؟ فهو لم يتعود بعد على اللغة المحلية ولا يزال محتاجا الى أولئك "القِياد" ليترجموا له شكاوى الأهالي وكل ما يتصل بأعيادهم وبمنازعاتهم وما يحل بهم من حرائق تلتهم حرثهم ودوابهم، وليداروا عنه أيضا ميوله ورغبته في تحسين شروط أولئك المستعمَرين الضعفاء، فيضطر بذلك الى مجاملة "القِياد" حتى لا يشوا به الى الإدارة الفرنسية فتعرض به الى العقوبة.

الى جانب ذلك فقد كان بيرك يضطلع بهمة معرفية داخل مكتب العرب، حيث لم تمنعه مواقفه الآنفة الذكر من الشغف بالتعرف عن كثب على تلك الأقلام التي أطلق عليها

الحاكم Dilavignette اسم "الحكام الحقيقيون للإمبراطورية" الفرنسية، ففي كتاباتهم وطرائق بحثهم وتحقيقاتهم الميدانية ما يستحق عناء المتابعة والمطالعة، لذلك لم ينتقص بيرك من انجازات كتاب مكاتب العرب، فهي على علتها تمثل "الشكل الا ٔكثر تفهما في إدارة العهد الاستعماري" من هنا تحفظ بيرك كثيرا من مبالغات زميله L. Massignon، الذي انتقد بشدة تلك المؤسسة واعتبرها مجرد "وكرا من أوكار الجوسسة" الذي تستخدمه الإدارة الاستعمارية في استغلال الأهالي. إن مآخذ بيرك على مكاتب العرب لم تكن عدمية فهو لم ينكر عليها سوى جمودها وعدم قدرتها على التكيف مع عالم متحرك يتجه نحو المستقبل، كما استهجن عجزها وعدم قدرتها على رؤية "التاريخ من الأمام" وليس من الخلف وتقوقعها بالتالي في حلقة الماضي، وبعبارة جامعة يقول بيرك أن "الفرنسيين بقوا روادا لكن لم يكونوا عدولا حيال التاريخ"، فهم لم يهضموا بعد أن فكرة الاستعمار ليست إلا لحظة عابرة وانتقالية في الزمان وليست بالأبدية.

إجمالا فإن مكتب العرب الذي نشأ في الجزائر على يد الرقيب de Lamoricière وبقيا يخضع لسلطة الضباط الشباب والإداريين العسكريين، لم يكن ليمنع بيرك من إنصاف الباحثين العاملين بأروقته، إذ يجب بحسبه "أن يعطى الحق لأولئك الباحثين الأوائل هذا على الرغم من المنهج الغير الدقيق الذي استعملوه وعلى الرغم من موسوعيتهم الهشة في الغالب، إلا إنهم هم الذين روجوا لعدد كبير من المباحث الذي لا زلنا نعتمد عليها، هذا بغض النظر عن كونها خاطئة أم صائبة"(نفس المرجع: ص،114)[10] (بتصرف) يقول بيرك.

كُتاب مكاتب العرب في ميزان بيرك:

لم تكن مكاتب العرب المتقصية للمعلومات والواضعة للمونوغرافيات بغرض التحكم في الجغرافيا وفي الديمغرافيا المغاربية على حد سواء، تخلوا من الأقلام المهنية والخبرات المحترفة التي يمكن الاستفادة منها. هذا ما ا ٔكده بيرك في العديد من كتاباته التي رصد من خلالها بمعمق التراث الأدبي والعلمي الذي وقف عنده أثناء تواجده بمكتب العرب. فهو لم يتوانى في وصف ما كتبه كل Daumas وRichard وPein وHugonnet بالعمل النزيه

والدقيق، خصوصا في المصنفات التي ألفوها والقوائم التي استحدثوها في ترتيب القبائل العربية، حيث وفر ذلك الجهد الكثير بالنسبة الى الأجيال اللاحقة من الباحثين، فدراسات أولئك الرواد المدعومة بالفعل والتي يأتي في مطلعها موضوع "الأسرة الأبوية"، قد أهدت للباحثين الجدد المفاتيح التفسيرية والتي لم يغفل قيمتها باحث مثلR.Montagne واستغلها أيما استغلال في جميع أعماله العلمية. يصف بيرك طرائق البحث عند أولئك الرواد فيقول: "إن الملاحظة المباشرة لم تكن الوحيدة من نوعها في أعمالهم إنما أيضا المعلومة الغير المباشرة قد لعبت دورا مهما في البناء المتأني للظواهر الخفية عن أنظارنا. إن النقد الهادئ والمرن للشهود قد ساهم في تحديد الوقائع وإبعادها عن التضخيم وأحيانا عن الخيال". لقد تميز بهذه المنهجية كل من Eugene Daumas بالأخص أثناء تحقيقاته في الصحراء[11] وA.E.H.Carette في عمله بمنطقة القبائل[12] دون إغفال بطبيعة الحال لتلك الروح الاستعمارية التي كانت تحركهم.

لقد وجدت هذه الصرامة في البحث من ينصفها ويحتذي حذوها، وهذا حتى بعد مرور نصف قرن عليها، ففي المغرب قام Mouliéras[13] بإعادة تحيين التحقيق الشفوي الدقيق والعميق مع عمال الحصاد، والذي توصل بموجبه الى وصف مفصل للمحاصيل الزراعية المنتجة. Daumas ومن بعده Rinn قد استعرضا في أبحاثهما قاموس الألفاظ والمنطوقات الأمازيغية الأكثر غرابة ما أحرج العقداء المتقاعدين وأثار مخاوفهم حيال نظرياتهم الشخصية التي روجت الى "أسطورة" الاشتراك العرقي بين البربر والفرنسين وهمشت متعمدة في المقابل العنصر العربي، أعمال الموسوعيين من أمثال Berbrugger والمترجمين من أمثال Rémusat وSlane قد أعادت من جانبها عبد الرحمان ابن خلدون مجددا الى الواجهة وأحيت معها روح الملاحظة المباشرة التي لا تزال تحتفظ بقيمتها الى يومنا الحالي.

للعلم فإن الأسماء المشار إليها أعلاه، لم تكن تنتمي في مجملها الى القطاع المدني، فمن بين ممن ذكر نجد الضباط والإداريين الذين كانت لهم ألقاب علمية وانخرطوا بجد في البحث الخالص،نذكر على سبيل المثال Castries Le Chatelier وDouttéوR.Montagne

الذين يصنفون ضمن هذا الترتيب. وعليه فإنه من الخسارة أن لا ينظر الى تلك الأعمال بالنقدالهادف وذلك لمجرد انتمائها الى الإدارة الاستعمارية. إذ كيف يعقل أن لا يستفاد من الاكتشافات ومن العروض المونوغرافيا بذريعة انتمائها الى الموروث الاستعماري ؟ وكيف لنا أن نتعامى أو نغظ الطرف على نفاسة ما أتت به مجموعة المجتمع التاريخي للجزائر (la Société historique algérienne) والمجتمعات الجغرافيا(S.G) لكل من الجزائر ووهران ومجتمع الأركيولوجيا لقسنطينة والأعمال المونوغرافية لكل من E.Mercier, Feraud, Arnaud وما تحمله كل تلك الأعمال من ثراء وتنوع؟ لقد حنكت السنين الطوال المعرفة الكولونيالية المتخصصة في الفضاء الجزائري، فاتسع نطاقها وتغلغلت جذورها فمن المجحف أن نتجاهل هنا Foucauld وما قدمه من أعمال مونوغرافيا حول منطقة الهقار والذي لم يدانيها في المغرب من حيث القيمة عمل مثلها، أو ندير ظهرنا لتلك التحقيقات الرائعة التي حملت الباحثين بعيدا، من أجل التحقيق في "الوقائع الاجتماعية الكلية" لقد وثّق قاموس التواقيع autographe الذي ألفه A. Basset بعد وفاة Foucauld في هذا الشأن، تلك الأسماء التي جابت أراضي المغرب الشاسعة ودونت أبحاثها وتجاربها الميدانية.

نتوه هنا بذلك التعاون الذي جمع النقيب N.Lacroix المسؤول عن مصلحة شؤون الأهالي بالباحثينH. de la Martiniére و Aug. Bernard وأثمر سنة 1906 كتابا مرجعيا يحمل عنوانL'évolution du nomadisme en Algérie ، لقد عدّ بيرك ذلك العمل الأول من نوعه حول الجغرافيا الإنسانية في إفريقيا الشمالية. كما اعتبر كتاب Aug. Bernard حول التخوم الجزائرية المغربية، إضافة جديدة في التعريف "بالقبيلة" بحيث شخّص الكاتب فيه بوضوح حدود التشابك والتعقد والعلاقة الحميمة التي تربط القبيلة بالاقتصاد الرعوي المواتي جدا للحياة الترحال والتنقل.

رواد علم المغرب:

إن الأعمال التي تتميز بالصياغة وبطرح الفروض وتجاوز المسائل الفردية الى التفسير البعيد،حاضرة هي الأخرى بقوة في الأدبيات الكولونيالية، لنذِّكر هنا بأعمال

E.Masqueray في الموضوع وبأعمال المدرسة الجزائرية التي نجحت في الجمع بين الثقافة العلمية والعمل القاعدي الأساسي والمقارنة وبين التحقيق الميداني والسفر المتواصل. إن E.Masqueray المولع بجمع الذكريات والمشاهد 1894 Souvenirs et Visions والمتفحص في اللهجات عن قرب[14] قد عزز من الصرامة المونوغرافيا وأبرز محاسن الاستقراء، لقد كتب سنة 1886 كتاب تاريخيا أسماه La formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie قال عنه بيرك "لقد كان له الفضل الكبير(أي الكتاب) في انجاز العديد من أبحاثي" وذلك لما له من أهمية في إبراز للمجتمعات البربرية الثلاثة والمتمثلة في المجتمع القبائلي والأوراسي والمزابي، وتناوله لها بالفحص وبالتحليل وبالتنوع المونوغرافي.

للتذكير هنا فإن ملاحظات E. Masqueray الغنية، تأتي في إطار جملة الملاحظات الرائعة التي قدمها Duveyrier حول الحواضر الصحراوية وملاحظات Doutté حول السحر و Montagne حول القبائل البربرية، ولقد أفاد بيرك منها الكثير خصوصا في عمله حول الأطلس الكبير. لكن على الرغم من أهمية Masqueray ومكانته في علوم المغرب إلا أن بيرك لم يكن ليقره على جميع قناعاته التي أوردها في كتابه الكبير، فلطالما استهجن بيرك بقاء ماسكري في جُبة Fustel خصوصا بعدما شبَّه بشكل نمطي المجتمعات المغاربية بالمجتمعات الايطالية القديمة، فلقد ضلل ذلك كثيرا (يذكر بيرك) ما يقارب ثلاثة أجيال من الباحثين وجعلهم يخلطون بين الحاضرة البربرية L'ikhs (لغة تعني العظم أو السلالة) وبين الحاضرة الرومانية la gens في حين أن التحقيق التوبوغرافي الرصين، يفند ذلك التماثل ويعتبره مجرد افتراض يعوزه الدليل والإثبات المادي، في ذات السياق طالب بيرك بضرورة إعادة النظر في سؤال البنا البربرية إذا ما كانت "أركائيكية" بالفعل أم أن ذلك هو مجرد تخمين مضلل تحتاج إليه الإدارة الكولونيالية لإنفاذ سياساتها وتمرير مخططاتها الاستغلالية؟.

أما بشأن القيمة الا كاديمية المتعلقة بأعمال إداريي البلديات المختلطة، فإن بيرك قد أقر بأن هذه الفئة لم تغفل في نشاطها الكتابي الجمع بين البعد النظري وبين البعد العملي، نشير

هنا على وجه الخصوص الى أعمال E.Doutté الذي وصفه بيرك "بالملاحظ الحاذق والرحّالة الحذر والمحقق الثبت الذي عمل على تصحيح أخطاء الموسوعيين الخياليين"، فلقد وجدت فيه كل من الاثنولوجيا الانجليزية والسوسيولوجيا الفرنسية الشخص النموذجي الأمثل في العمل الميداني المنهج. فكتابه الشهير Magie et Religion الذي ألّفه سنة 1909 قد جعل منه رائدا فريدا في مجال الاسلامولوجيا المغاربية بشكل عام. هذا وإن كان بيرك لم يرق له كثيرا تقديم المغرب وكأنه بلد للسحر وللشعوذة، إلا أن ذلك لم يمنعه من الاعتراف بأن هذا الميدان قد وجد بكل استحقاق واصفه الحقيقي ويقصد بذلك إ. دوتيه.

في ثلاثينيات القرن الماضي نشطت حركة الترجمة[15] والتفسير، فتعززت بذلك علوم الشمال الإفريقي بميثولوجيا رائعة حيث لعبت كتابات E.-F. Gautier بهذا الصدد دورا حيويا فعالا، خصوصا برؤيته تلك حول مغزى الحياة المنبعثة من التقاء البنا الاجتماعية بالظواهر الخارجية، وامتزاج العالم الافتراضي الذي تغذيه مواهب الماضي بالعالم الملموس وبالمبادرات الإنسانية، تلك الازدواجية التي يجتمع فيها المعيش الداخلي بالمشهد الخارجي للحياة في الفضاء المغاربي الفسيح المتنوع، هي بحسب E.-F.Gautier من ينبغي الاعتناء بها والتركيز عليها من قبل علم اجتماع الشمال الإفريقي، فمراعاة هذا البعد هو من سيضمن التفوق الكامل لعلم الاجتماع. بحسب بيرك "فإن ما قدمه Gautier (بذلك الطرح) يعد درس جيد يجب الاحتذاء به".

أخيرا وليس آخرا يلفت بيرك عناية قرائه الى أهمية كتابات R. Montagne في إثراء علوم المغرب، فمقالات الرجل الذي كان ينشرها ابتداء من سنة 1924 على مجلة Hespéris قد أكدت أن نهجه لا يختلف في شيء عن سلفه Gautier. إن جهوده المبذولة في إعادة إحياء أطروحات ابن خلدون ذات المضمون الميداني والمقاربة التجريبية وملاحظة الوقائع واختبار الأفعال قد قوضت أطروحات الضباط السابقين، فنظريته المشهورة باسم Montagne اللف Leffs[16] التي تقضي بعدم جدوى الاتكاء على مفهوم الاثنية، قد أكدمن خلالها على أن القبيلة ما هي إلا تجمع سياسي وليس بالعشائري، لذلك

لا يمكن أن يعتد ميدانيا بهذا المعطى الأخير في التحليل وفي التفسير. إن توخيه للممارسة الميدانية الى حد بعيد واعتماده في نهجه على أسلوب الاستحضار والاستدعاء، قد أعطى لكتابه الذي ألفه سنة 1930 والموسوم باسم Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc: essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires (groupe chleuh) ميزة وقيمة فريدتين كما منح ذلك النهج لأعماله المزيد من التقدم ومن الاستمرار.

إن كل تلك الأعمال المشار إليها أعلاه بما في ذلك الأسماء المرموقة والوازنة في مجال فنون العلوم الاجتماعية والإنسانية هي على أهميتها وعلى الإضافات المتنوعة والمتعددة التي قدمتها الى المعرفة الأنثروبولوجية بالجزائر وبالمغرب ككل، مع عدم الإغفال بطبيعة الحال للملاحظات والمؤاخذات ذات المضمون الإيديولوجي أو الكولونيالي التي تنطوي عليه. فإن ذلك لا يمنع في واقع الأمر من الاستفادة منها وإعادة استثمارها بعد غربلتها ونقدها بشكل هادئ وبناء وأن لا تقف العقدة الكولونيالية عائقا مزمنا يحول دون استغلال تلك الدواوين الغزيرة الثراء والتنوع. لقد انتهج بيرك بالفعل هذا المسلك فهو بقدر احتفاءه بذلك التراث وتثمين ما جاء فيه، إلا أنه لم يتوانى في نقده وإزالة ألغامه وتفكيك مسلماته، فعمله الذي أنجزه عن قبائل سكساوة وقبله القبيلة في الشمال الإفريقي يعد أفضل دليل على ذلك لنلقي نظرة على تلك الأعمال.

أي قبيلة لأي شمال إفريقي؟:

يعد مقال بيرك الموسوم باسم "ما معنى القبيلة في الشمال الإفريقي؟" الذي كتبه سنة 1954 نصا تاريخيا بامتياز، فهو بالمناسبة جاء ليرجح الكفة في مجال الأبحاث الاثنولوجيا الاستعمارية التي فضلت منذ اللحظة الأولى اقتحام ميدان القبيلة، وإبراز الأخيرة على أنها الكيان الأوحد الذي يهيمن على أرض المغرب، يقول بيرك بهذا الصدد: "في بحثنا عن المواضيع الموجهة لمعارفنا وعملنا على المجتمعات الشمال الإفريقية ما وجدنا أمامنا سوى القبيلة"(261:1954)[17] من هنا قرر بيرك قطع الصلة بالأحكام المسبقة والتصورات

الجاهزة المترتبة عن الإرث الكولونيالي في هذا المجال واعتماد منهج ورؤية مختلفتين في البحث، تنظر للأشياء من زاوية تشبه الى حد بعيد ما يسميه بيرك "بملحمة علم النبات"(métaphore botanique) التي تشخص مسمى القبيلة مثلما تشخّص الشجرة ذات الأصول والفروع وكل ما يحيط بها من نباتات ثانوية تحوم حول محيطها الخارجي، بالإضافة الى ذلك فإن بيرك لم يهمل التخمينات ولا الافتراضات ولا الظنون الغير الأكيدة فهذه بالنسبة له مواد تساعد على التقاط المكونات التي ستتشكل منها "فرضيته التاريخية" والتي سينبني عليها بحثه، وتقول بأن سكان المنطقة لم يعرفوا في حياتهم سوى الهجرة على جميع الصعد والمستويات.

للخوض في غمار هذا الموضوع ودراسة المجتمع في حاضره وأوانه، ما كان أمام بيرك سوى شحذ ملاحظته المباشرة والراهنة ليطل من خلالها على التشكيلات المجتمعية العصبوية المحلية التي تموج بها أرض المغرب، فكان من نتائج ذلك قوله أن "المجتمعات المغاربية هي ذات طبيعة مغبرة في الغالب(..) وذات شكل فسيفسائي(..) تشبه حبات الزرع المتراصة ذات الألوان القليلة". لقد جعله هذا التصور يتأكد من أن الأسماء المتكررة للمجموعات الاجتماعية على ربوع المغرب الكبير وعلى مستوى الأطلس الأعلى والأسماء المثبتة تاريخيا والأصول والأعراق المتعددة، إنما هي تنشأ وتتشكل جميعها بمنأى عن الخيالية الجنيالوجية. للعلم فإن بيرك قد أدرك منذ الوهلة الأولى الفرق الموجود بين تعدد وتنوع الأصول على اختلاف مكوناتها وعناصرها، وبين فكرة خيالية رابطة الدم المرمز إليها بوحدة المجموعة والاسم الجامع لهاéponyme. الجغرافيا المتلاشية في هذا الإطار والحدود الخافتة عبر التاريخ وذلك من جراء الترحال المستديم لشعوب المنطقة (كما تذهب الى ذلك إحدى الفرضيات)، لا يلغي البتة صفة التمدن عن تلك الشعوب ولا يخفي سعادتها بنمط عيشها، هذا بغض النظر عن النظرة السطحية للمشهد، التي تبدى سكان المنطقة وكأنهم "مجموعات متشظية مبعثرة في المكان"[18].

إن المجتمع المغربي كما تأكد عليه الملاحظة الراهنة وليست النظرة المسبقة، هو عبارة "عن نسيج متواصل" تجمع بين وحداته الخيالية، الاسمية وتنوع الأصول والتعايش المحلي

"دونما إزعاج لأي مواطن"[19] في المكان. لكن كيف يقرأ بيرك ظاهرة تشابه أسماء المجموعات وتكرارها التي لمس وجودها "في نطاق المغرب ككل"؟. في قناعة بيرك لا يوجد تفسير تاريخي لتلك الظاهرة المتمثلة في انضواء المجموعات الغير المتجانسة تحت اسم واحد،، "ففي الوعي العام" أن ذلك الإشكال "لا يعود الى التاريخ(..) إنما يشير الى الرمز(..) فالمجموعات لا يهمها سوى الاسم فهو وحده من له القيمة الاجتماعية".إن اختلاف الأسماء وتباينها في المقابل، لا يعدوا بالمناسبة أن يكون مجرد "اختلاف لفظي". من هنا فإن المجموعات القبلية ليس لديها سوى ملكية واحدة غير قابلة للنقاش ألا وهي ملكية "راية الاسم"[20].

ولمزيد من التفصيل في الموضوع وشرح أوضح لمعنى الاختلاف والتباين الذي يتخلل تلك المجموعات، يذكر بيرك أن حياة تلك المجموعات إنما تحتكم في مجملها الى "نمطين متعارضين يتمثلان في التشابه وفي التشاكل"(بتصرف)[21]أما النمط الأول فهو عبارة عن تجمع لعناصر متعددة، تنضوي جميعها تحت اسم واحد قد يكون أحيانا وليس دائما اسم الجد الأول وبذلك تشحذ وحدة المجموعة وتصاغ. أما النمط الثاني فهو يخضع "لتجزأ الأقاليم(..)الى كنتونات متناحرة قد تكون عصب أو رتب أو تكتلات" (بتصرف)[22] . لقد دأبت الكتابات العارفة بالمناسبة لقرون عدة، على تكريس الرؤية الخلدونية المتعلقة بتفسير الأعراق البربرية الكبرى، والتي تفيد بانصهار مختلف المجموعات ضمن نظام عتيق سام في عرقه وفي اسمه". لقد التفت المعرفة الكولونيالية على هذا التفسير وجعلت منه شماعة رئيسية تعلق عليها جميع التعاريف التي تتبناها في تشخيص التشكيلات المجتمعية المحلية، لكن بيرك قد رفض ذلك الطرح ونعته "بالأسطوري" الذي لا يمت بالواقع الملاحَظ بأية صلة.

نفس الأمر يمكن قوله على نظرية "اللف" التي جاء بها R. Montagne وأراد من خلالها تفسير التاريخ الاجتماعي لمختلف القبائل بجنوب المغرب، فهي بحسب بيرك ليست إلا "تصنيف نمطي خالص" لا يرقى ليشكل أي صفة من الصفات البنيوية الثقافية والتاريخية لتلك المجتمعات، "فاللف" ليس بتلك اللحظة الفارقة التي تحدد المجموعة، بل إن ما يفرق هنا هو تلك "الروح الصوفية التي تعم ساكنة الريف"[23]. لقد أدرك بيرك العناصر

البنيوية والوظيفية التي تتحكم في ميكانزمات المجموعات المحلية وذلك من خلال دراسته للحركة المرابطية الكبرى بين القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر، فتبين له كيف أن ذلك يشكل ارتباط وثيقا "بالمورفولوجية الاجتماعية" المحلية، وكيف أن "ذلك التنوع المرابطي وانتشاره الواسع على الصعيد الشمال الإفريقي، يدل على الحياة المحلية المحتضَنة داخل مربع القبلية" خصوصا في لحظات الفتن والتفكك الاجتماعي. عندئذ يبرز دور "الحراك المرابطي فيقوم بإحصاء الجماعة وجمع الأقاليم وتجسيد التنظيمات القديمة التي طالما طعن فيها الآخرين" (1954: 271)[24].

أخيرا وليس آخرا فإن التشكيلات الاجتماعية المحلية بحسب بيرك، ترتبط في بعض الأحيان "بالتمدد الهلالي"(1954: 271)[25] فالشكل القبلي في الواقع ليس ذو أصل مغاربي بل هو ذو أصل عربي. ويخلص بعد ذلك الى القول أن القبيلة في الشمال الإفريقي "إنما هي أداة نشأت بين التطور العام للتصور والخيار الإداري وبين التطورات المحلية التي غالبا ماتكون نشطة، بهذا المنظور تعد القبيلة ظاهرة ثانوية وجزء منها مصطنع"(1954:271)[26].

"بناء على هذا العمل التفكيكي الرائع، لم يبق أمام التعميمات الاثنوغرافيا الكولونيالية الشيء الكثير. فلقد قضى بيرك بذلك على الفروض المجانية ونسف بالدليل الأوهام السالفة، نافيا بقوله أي وجود للقبيلة "غاية ما هنالك هو وجود أسماء قبائل وعلامات ورايات اسمية"، وبناء عليه فإن العناصر المشكلة للمجتمعات الريفية المغاربية إنما هي عبارة عن "مجموعات" من الجماعات المتنوعة ومن الكيانات المتداخلة والمتعددة والمنقسمة في هويتها الجماعية وتمثلاتها الشعورية والصراعية، مشكلة بذلك كيانات حقيقية، لذات السبب أغفل بيرك متعمدا استعمال أو توظيف مسمى القبيلة واختار بدلا عنه مسمى الأهالي أو "المجموعة". وتأكيدا منه على ذلك فقد أشار بيرك الى العديد من الأشكال المجتمعية التي انحلت وانتهت وفقدت بذلك اسمها، من ذلك "الأسلاف القبلية"(349:1975)[27] من أمثال قبائل العهد الوسيط كصنهاجة ومصمودة وزناته الخ. هذه هي إذن حصيلة بيرك في ما يخص النزعة القبلية بالمغرب وذلك حتى قبل ظهور النموذج الانقسامي الجلنري (نسبة الى أرنست جلنر)[28] على صعيد الشمال الإفريقي.

حول أطروحة البنا الاجتماعية للأطلس الكبير:

لقد كان لأطروحة بيرك الرائدة "البنا الاجتماعية للأطلس الكبير" سنة 1955، عظيم الأثر على الباحثين من بعده الذين عملوا بوجه الخصوص على الملف المغربي، إذ لا تزال التساؤلات التي أثارها تلهم الكثير من أولئك الدارسين، فهو قد فتح لهم بوابة العمل الأنثروبولوجي في المغرب على مصراعيها. إن أطروحة بيرك المليئة بالمشاهد وبالأصوات وبالروائح والأذواق ومختلف أشكال الزينة والألوان المستعملة، والحصى المنحوت في المنازل الرائعة وغير ذلك من التفاصيل، إنما هو إبداع تأثر في وجه من وجوهه بأعمال أستاذه Louis Gernetوبنصائح Marcel Mauss الأنثروبولوجي المعروف وبما اغترفه من مدرسة الحوليات التي يمثلها كل من Lucien Febvre و Marc Bloch اللذان اعترف لهما بيرك بالفضل خصوصا في مجال تعلم فن ما بين التخصصات، الذي اعتمده بيرك كمقاربة بحث في التاريخ الاجتماعي للمجتمع المغربي، والذي في القلب منه قبائل سكساوة التي افتتن بها بيرك أيما افتتان وسحرته أراضيها الغابية الخلابة "فالروعة (يقول بيرك) تعني سكساوة". من هنا اجتهد الرجل لتعلم لغاتها ولهجاتها المختلفة، فهو لم يعد يقتنع كثيرا بما يقدمه المترجمين ولا المرشدين الذين قد يضللون أكثر مما يفيدون، فلا مناص إذن من "التحكم في اللغة المستعملة كالعربية المغربية الدارجة بما في ذلك الشلوح. "إن هذا العمل لم يكن يتقنه (بالمناسبة)إلا عدد قليل يعدون على أطراف الأصابع اليد الواحدة ممن درسوا الشمال الإفريقي"(Berque, 1988 : 32)[29].

إن هذا الجهد اللغوي الذي بذله بيرك في تعلم اللغة واللهجات البربرية المحلية، قد وجه اهتمامه مباشرة نحو أسامي الأماكن والمناطقLa toponymie، فقبائل سكساوى التي أبهرته وذلك بما تزخر به من علم ومن تنوع ثقافي و"تناغم في مكوناتها وأجزائها" قد لفتت انتباهه الى الأهمية الكبرى الذي يلعبها اسم المكان في إحداث الانسجام والألفة بين المجموع، فالقبائل لا ينتظم شتاتها إلا على قاعدة الحقوق المتعارف عليها وتسهر "عين التوبونيميا التي تعم البلاد" على حراستها. إن الشهور ثلاثة التي قضاها في أودية آيت عطا بأعالي الأطلس، قد جعلته يكتشف مدى أهمية "الألقاب المكانية onomastique التي تعم تلك

الأفضية المركبة والتي غالبا ما يكون الوسط الطبيعي المحدد الأساسي لها أما المحدَد فهو اسم المكان الذي ينشأ إثر التدخل الإنساني فيه فيتشكل بذلك منه الوسط الثانوي" (lefébure, 1971 :20)[30]

"لكن ذلك لا يعني أبدا أن الأقاليم التي تخضع من الناحية المجتمعية للرقابة "التوبو نيميا"، أنها تحيل مباشرة الى البنا الاجتماعية أو الممارسات الفلاحية"(210:1978)[31] كل ما هنالك أن اثنولوجية الاسم في هذا المضمار هي عبارة عن "معزوفة من أسماء الأماكن" تؤدي دورا جماليا ليس إلا. وبناء عليه فإن توزيع الأقاليم ذات "الأسماء" وتصنيفها إنما يتم على حسب صورة وسمعة الألقاب المكانية وعلى حسب أيضا نظام الدورة المائية ورزنامته السنوية.

إن هذا التشكل التنظيمي الرائع هو أساس أطروحة البنا الاجتماعية للأطلس الكبير، والتي ارتكزت تفاصيلها على سجلات مختلفة بإمكاننا إجمالها في العناصر الأساسية الثلاثة الآتية: أولا العرض التاريخي الحصري لمجموعة "ثاقبايلت" من مجمل قبائل سكساوى، مع كتابة المئات من الإثنو اسمية وتقديم "بعض التحاليل الإقليمية" وتتضمن ثلاث مائة جزئية من الأسماء المكانية المترجمة بدقة، هذا إضافة الى سرد العشرات من الحكم الشعبية الزراعية (من صفحة 131-الى صفحة 134)[32]. ثانيا تخصيص ثلاث صفحات (من ص، 257الى ص، 259)[33]لذكر أسماء الأماكن المقدسة. ثالثا وأخيرا وضع قائمة بالأسماء المحلية تتكون من مائتان وأربع وعشرين تعبيرا وترجمتها في المقابل باللغة الفرنسية هذا بالإضافة إلى الصور والى الترجمات المتنوعة، الدقيقة منها والمنطوقة بحروفها، وتوصيف معاني النظام المعرفي للفاعلين أي ما يشبه الى حد بعيد الخواطر الاثنوا علمية. للعلم فإن أطروحة بيرك تلك تتخللها الكثير من التقابليات والثنائيات والتي هي وفق لفظه تتشكل من الأزواج التالية:"العام والخصوصي" "الملموس والتفسيري" "الجماعي والذاكرة" "الوحدوي والتميزي" "التحليلي والمعيش" "المسرح به والغامض ثم الغامض والغير المسرح به" "الأماني والمقدس التهييجي"(Berque,1978: 131, 175, 213, 454)[34] وغيرها من تلك الثنائيات

والتقابليات التي يحبذ الباحث الاثنولوجي العمل عليها عادة. إن هذا التوظيف المعرفي الذي انتهجه بيرك في أطروحته قد ميزه عن غيره ومنحه الفرادة والسبق في مجال علوم المغرب.

في الواقع إن البراعة التي أبداها بيرك في عمله المذكور، لها خلفية سيكولوجية ذاتية عميقة دفعت به نحو التنقيب في الأغوار وذلك من أجل ملامسة الروح الجماعية العامة للساكنة،فمحِلة سكساوة الفاتنة بغطائها الغابي قد كان لها هنا الدور الحاسم في تحول مسار بيرك المعرفي،فلقد لاحظ عن كثب كيف أن نظامها المجتمعي يتشكل من "الأحاسيس ومن المشاعر المشتركة ومن تصور معين للعدل وللجور"، فهذا الشعور الاجتماعي بحسبه إنما جاء "نتيجة للتراكم التاريخي أو بالأحرى هو من صنع التاريخ ذاته" (Berque,1978:392)[35]، من هنا لجأ بيرك في أطروحته الى الاشتغال بالتاريخ الاجتماعي فهو وحده الكفيل بتفكيك مآثر تلك المجتمعات. "إن التاريخ يمثل في آن واحد المنطلق والنتيجة في هذا البحث" ملحق الطبعة الثانية (Berque : 1978)[36]. إن اهتمام بيرك بالتاريخ الاجتماعي لساكنة سكساوة يرجع أيضا الى "الأهمية التي يوليها سكان المنطقة لكل ما يتعلق بماضيهم"(محمد الدهان،2009: 65)[37]. فالمجموعة الاجتماعية بحسب بيرك تستعمل لذات الغرض مختلف الأساليب والتقنيات لأجل تسجيل ماضيها، فهي بذلك لا تستغني على الرصيد العائلي ولا على الثقافة الشفوية وأسماء القبائل والأماكن في تثبيت هويتها التاريخية(Berque, 1978 :62)[38]. هكذا كانت رؤية بيرك إجمالا عن الأرياف والبوادي، لكن ماذا عن المدن والحواضر المغاربية؟ ما هي مساهماته في هذا المجال وكيف حلل البنا وفكك التشكيلات المجتمعية والمورفولوجية؟.

أي معنى للحاضرة المغاربية؟:

إن المتتبع للسيرة ج. بيرك الذاتية يجعله يدرك أهمية ذلك الرجل الذاتية والموضوعية والإضافة التي أسداها لمعرفة المدن والإسلام المغاربي خاصة ولعلم الاجتماع والأنتروبولوجية الحضرية عامة، فمدة العقدين أو يزيد من الزمن التي قضاها في المغرب كمسؤول عن شؤون الأهالي، قد جعلته في اتصال يومي مكثف بأهل الأرياف مما جعله يكتسب خبرة وتجربة

ميدانيتين واسعتين (Akar , M.1988)[39] . لقد ظهر ذلك جليا في كتاباته وأبحاثه، فمنذ ثلاثينيات القرن الماضي وبيرك يعمل دون كلل على سبر أغوار المغرب، مقدما في ذلك الأرياف على الحواضر. إن فحصه للعقود الرعوية عند بني مسكين سنة 1936 ثم دراساته بعد ذلك لتاريخ الريف المغربي سنة 1938 يشهد ويؤكد على ذلك الاهتمام الذي سينتقل بدوره معه فيما بعد ويتحول الى اهتمام أوسع بالحواضر وبالمدن، على أن يكون الفقه في هذه المرة هو مدخله الرئيس وليس العمران بحد ذاته، لقد درس لهذا الغرض سنة 1940 "نوازل المزارعة" لميار الوزاني وأصدر فيما بعد سنة 1944 دراسته المعروفة باسم "بحث في منهاج الفقه المغاربي"لكن ما السرّ وراء اهتمام بيرك بالفقه وبالتشريع الإسلامي أثناء دراسته للحواضر وللمدن المغاربية؟.

إن اهتمام بيرك بالفقه فيأربعينيات القرن الماضي وليس بالعمران، إنما يعود إلى دور المدونة الفقهية في تنظيم انتقال الناس من "البدو إلى الحضر"، فهي إن شئنا–أي المدونة الفقهيةتمثل الملاذ الآمن الذي يضمن التمسك بالإسلام وذلك أثناء حدوث هذا النوع من الحراك، لذات السبب نجد أن الفقه قد تطور في المدن والحواضر وليس بالبوادي والأرياف،فالأخيرة كانت دوما فضاء خصبا لنفوذ التقاليد وسلطة الأعراف، بينما المدن فقد كانت تمثل الحاضنة المفضلة والبيئة المثلى لتواجد الفقهاء والعلماء وهذا في الوقت الذي كانت فيه البوادي والأرياف مسرحا ينشط فيه شيوخ الزاويا ويُمجد على خشبته الأولياء، على هذا الأساس يجب فهم لماذا ربط بيرك إعمار المدن المغاربية بالموروث الفقهي ومن ثمة سرّ توالي أعماله الفكرية وترتيبها على النحو التالي(الريف/الفقه/العمران).

لقد تجلت هذه الخبرة لديه في عدة أعمال، ابتدئها بالاهتمام بمدينة فاس التي كتب عنها عدة مقالات والتي افتتحها بملاحظاته الخاصة حول جامع القرويين، حيث كتب في ذلك دراسة أسماها "دور الجامعة الإسلامية بالمغرب الجديد"(Berque :1938)[40] واختتمها بعد مرور ما يزيد عن الثلاثين سنة بمقال عنوانه "فاس أو مصير مدينة"(Berque :1972)[41] في سنة 1949 وفي ذات الموضوع كتب مقال آخر أسماه "المدينة والجامعة: نظرة حول تاريخ مدرسة فاس" (Berque :1949)[42]ثم أطروحته في الأخير التي أنجزها سنة 1955

وكانت بعنوان "حول البنا الاجتماعية لسكساوى بالأطلس الأعلى" (Berque:1955)[43]. لم يتوقف إنتاج الرجل ضمن هذا المضمار في الواقع عند هذا الحد، بل زاد اهتمامه بالحواضر وبالمدن خصوصا في فترة الخمسينيات من القرن الماضي أي الفترة التي كان فيها الفضاء المغاربي تحت نير الاستعمار ووقع الحروب وبروز الهويات الوطنية، لقد تأثرت كتاباته الحضرية بهذا السياق إذ كتب سنة 1958 "الحاضرة المنيفة" la cité éminente (Berque :1958)[44]و"المْدينة والمَدينة الجديدة ومدن الصفيح" " médinas ville neuves et bidonvilles"، موظفا في ذلك المنهج السوسيو الأنثروبولوجي الحضري المرتكز أساسا على النموذج العتيق l'archétype الذي تمثله مدينة فاس، فلقد كتب عنها بيرك عدة دراسات وأبحاث نذكر منها مقاله "بروز العاصمة المسلمة" Genèse d'une métropole musulmane وكتابه "المغرب التاريخ والمجتمع" Maghreb histoire et société، وكتاب "المغرب بين الحربين" Maghreb entre deux guerres سنة 1962، الثري بالوصف وبالتحاليل الحضرية وبأنماط الحياة المدنية ذات التأثير على الأخلاق والعمل السياسي بشكل عام. إجمالا فإن ما قدمه بيرك للنظرية الحضرية وللتحقيق الاثنوغرافي والذي يمكن اختصاره في ثلاثية المدينة العتيقة والمدينة الجديدة وبيوت الصفيح، يعتبر جهدا غير مسبوق تتبع فيه مختلف التحولات العميقة التي عرفها الفضاء المغاربي في فترتي الاستعمار والاستقلال على حد سواء.

مورفولوجية المدن المغاربية بعيون بيرك:

لقد تمحورت تساؤلات بيرك بالمغرب في شقها العمراني، حول مسألة الحدود التي تفصل وتميز المدينة الريفية الصغيرة عن المدينة الكبيرة، فأين تنتهي الأولى ومن أين تبدأ الثانية؟ بحسب بيرك فإن المتغير الديمغرافي لا يكفي لوحده في تحديد مسمى المدينة الحديثة وتعريفها، لذلك كانت ملاحظاته المباشرة للفضاء المغاربي ترتكز بالأساس على تصور أكثر أنثروبولوجية في ضبط المسميات وصياغة التعاريف الخاصة بالمجال، من هنا فرّق بيرك بين نموذجين مورفولوجيين اثنين: النموذج الريفي التقليدي ويصفه بأنه عبارة عن "تجمع اجتماعي بدائي ذو شكل ريفي، فيه يعاد تشكل العصبيات بصفة غير مكتملة، مركزه السوق الذي

يتقاطر عليه أهل القبيلة ويستند اقتصاده على الزراعة الرعوية". إن هذا النموذج من التجمع السكني في عرف بيرك، لا يمكن تسميته بالمدينة حتى ولو اشتملت ساكنته علي النصاب الديمغرافي المطلوب. إذن فما هي المدينة في نظر بيرك؟ إن المدينة (النموذج الثاني) في تصور بيرك، إنما هي من صنع العالم الحديث، نشأت إثر الحراك المجالي القائم على فعل المبادلات والمضاربات المعقدة والمتعددة والمتنوعة. إن هاذين النموذجين المورفولوجين هما من يرسمان اليوم مباني المغرب المتنوعة، لكن وفق أي تصميم معماري؟.

في تحليل بيرك فإن المدينة العتيقة التي تستلهم مرجعيتها وامتدادها من القرنين الرابع عشر والخامس عشر اللذان كانت تسودهما سلطة "الصلحاء"، هي اليوم تتجمع تحت ظلال مآذن المساجد السامقة تطوقها الأسوار وتهيمن على نسوجها الاجتماعية روح الأولياء الممتدة من العهد المرابطي بالمغرب والتي لا تزال متغلغلة الى يومنا الحالي في مفاصل الحياة الاجتماعية المحلية، هذا النموذج العمراني اليوم يتداخل فيه ويلتحم (من يطلق عليهم بيرك) الوافدون من الخارج "les venus d'ailleurs" بالوافدين من الأقاصي "les venus d'en hauts"، أي بمعنى أن المدينة العتيقة قد تحولت الى بؤرة للتمازج بين ساكنة المدن الجديدة الوافدة منمدينة الدار البيضاء ذات الطابع الأوروبي المتأثرة تاريخيا بتحولات حركة الملاحة، وبين ساكنة العواصم الإسلامية الوافدة من مدينة فاس العتيقة السابحة في عمقها الثقافي والديني.

إن ذلك التركيب الذي تتشابك فيه الأنماط المورفولوجية العتيقة بالأنماط الحديثة، هو من وجهة نظر بيرك يعاني اليوم من صعوبة بنيوية مستعصية، تتجلى في صعوبة الاندماج في العصرنة والتحديث العمراني، فالمدن التاريخية على حد قوله لا تزال "حضرنتها تتشبث بالبعد العلاماتي" (l'urbanisme du signe) الذي يكون فيه المسجد شاهدا(علامة) ومنطلقا لكل عملية مد وزجر اجتماعيتين. ثم إن استمرار ألوان القرابة والروابط العائلية التي تشكل جزء هام من جسم المدينة العتيقة لا تزال تفضل البعد الجدودي (من الأجداد) الذي يفرض تعليماته الصارمة في مجال البناء وامتلاك العقار، هذا ناهيك عن استناد مرجعيات التمدن ومواصفاته الحضارية على إحدى الخواص الاجتماعية للمدينة

العتيقة والتي عادة ما تتلخص في الانتماء إما لفئة الحرفين أو فئة التجار أو المنتسبين الى العلم الشرعي.

إن تلك المواصفات المذكورة ترسم اليوم مشهدا من التزاحم ومن الاكتظاظ، تقع تحت وطئته المدينة العتيقة لحظة تقاطعها وتشابكها مع المدينة الجديدة، ذات الطابع الرأسمالي القائم علي البورصة والصناعة التكنولوجية وعلي العمران الحديث، هذا بالإضافة الى بنايات الصفيح والمجمعات العفوية التي تزيد من تعقد المشهد، إنه ضمن هذا الإطار المديني الهجين الذي تتداخل فيه المدينة العتيقة بالمدينة الجديدة ببنايات الصفيح والمجمعات العفوية، تنبثق اليوم الجموع البشرية بالمدن المغاربية وتخرج لتعمر المكان وتلون أطيافه بمختلف صفوفها وصنوفها الاجتماعية.في مثل هذا الوضع فإن مؤسسة البلدية تصبح عبارة عن غطاء يحتدم في كنفه وبشكل غير مكتمل القرابات العصبوية الممتدة فهي أي البلدية قد تحولت بموجب ذلك التشابك موطنا للسلالات العائلية. وبناء عليه وبحسب هذا المنطق فإن الدولة سواء كانت عتيقة أو استعمارية أو حتى وطنية، ما هي في الواقع سوى ملصق من الملصقات تم تثبيته في الأخير بإحدى النموذجين المورفولوجين المذكورين. هنا يكمن اليوم التحدي الأكبر الذي تواجهه المدن المغربية التاريخية والمجتمعات التي تقطنها على حد سواء.

الخلاصة:

لا يختلف اثنان في أن أعمال بيرك الغزيرة تعد لحظة فارقة في عمر الأدبيات التي جعلت من المغرب الكبير مادة رئيسة لها، حيث ساهمت كتاباته العميقة في إعادة ضبط البوصلة وتحرير النظر والفكر من كثير من الأحكام المسبقة ومن "الكليشيهات" الأيديولوجية المغرضة التي ضاعت معها صورة المغرب وحقيقته وتشوهت بسبب الشطحات التي جالت في خلد العديد من كتاب الإدارة الكولونيالية الراغبين في الاستحواذ الأبدي على المنطقة وساكنتها، لكن مناهضة بيرك عن المغرب وأهله ومواقفه من الاستعمار وفعله ودفاعه عن الشرق وتاريخه لم يكن ليشفع له عند ثلة من الكتاب الأكاديميين العرب المسكونين بهواجس الاستعمار ومن ثمة الإبقاء على الرجل ولو بصور

متفاوتة ضمن القوائم السوداء التي مارست "الأبو ّة المعرفية" على المغرب وتراثه بشكل خاص، حول هذا الموضوع ذكر الأستاذ محمد المجاهيد عينة من الكتاب الذين سجلوا توجسهم من أدبيات بيرك المغاربية، من ذلك الباحث عبد الكبير الخطيبي صاحب كتاب Penser le Maghreb[45] الذي لم يتردد في تصنيف بيرك ضمن خانة المستشرقين الكلاسيكيين متناسيا أن الرجل قد عمل على "إقبار دعائم الاستشراق المغرضة والموجهة، مما جعله باستمرار يلح على ضرورة التبادل الفكري حتى لا تبقى هنالك سوسيولوجية الشرق، ولكن شرق العلوم الإنسانية"[46]أما الكاتب محمد وقيدي فهو لا يزال يتساءل "إذا كان يحق لنا أن نؤكد مع جاك بيرك لم نعد أمام الاستشراق التقليدي، بل ولم نعد أبدا أمام اهتمام ذي طبيعة استشراقية إيديولوجية"[47]؟. إن السؤال الذي يطرحه محمد وقيدي على وجاهته لا يستطيع أن ينفي أن أعمال بيرك إنما "تصب في الاتجاه الذي يعمل على إحداث قطيعة ابستيمولوجية مع العلم الاستعماري في منطلقاته وتصوراته ومفاهيمه ومناهجه وقد يعود له الفضل أكثر من غيره في زعزعة المبادئ العامة التي يقوم عليها الفكر السوسيولوجي الغربي"[48].

في الواقع ثمة طيف من الكتاب العرب، لا يستسيغ كثيرا أن يكون الشأن العربي موضوعا للدراسة والبحث من قبل الأجانب الغربيين، اللهم إلا إذا كان ذلك على سبيل الثناء والمدح لمآثر العرب ومحاسن الشرق ويتصور أن ثمة "امتياز ابستمولوجي ما للأهلي"[49] على حساب الأجنبي في إدراك ما خفيا من معنى وما تشكل من روح جماعية وذاكرة محلية!إن هذه النظرة الأحادية إنما تتغذي على تصور أيديولوجي مسبق، تتحكم فيه "الوطنية المنهجية" والتي هي بحسب تعبير الأستاذ عبد الرحمان موسوي (في تحدثه عن الجامعة الجزائرية)"تقارب بين الابستيمية وبين الحدود الوطنية. فلو تحدثنا على سبيل المثال(يقول ع. موسوي) على التاريخ فإن الصحافة لا تفتح أعمدتها للمؤرخين الفرنسيين أو الأوربيين إلا إذا تحدثوا على مواصفات التاريخ الجزائري، لذلك يعطى لهم الدور الأخضر ليدلوا بشهاداتهم وبأفكارهم وهذا بحكم أنهم تخصصوا في الشأن الجزائري. نفس الخط

يتواصل ويستمر مع الأجيال المتعاقبة، فالطلبة لا يشتغلون إلا من داخل الحدود. ما يعني أن الجامعة الجزائرية لم تنتج بعد من يشتغل بالموازاة على سبيل المثال على تاريخ فرنسا"[50].

انطلاقا من هذه الاعتبارات، هل يمكن وصم الإنتاج الأجنبي بالحيف وبعدم النزاهة وفي المقابل العمل الوطني بالمصداقية وبالأمانة؟ إن الخوض في مثل هذا السؤال في الواقع، يتطلب بحثا مستقلا بذاته لذلك اكتفينا هنا برجل الضفتين كنموذج للتقاطع بين المعرفة المحلية والمعرفة الكونية والذي كون لنفسه مسارا مختلفا يقطع الصلة بالمركزية الإثنية ethnocentrisme من جهة وبالوطنية المنهجية من جهة أخرى، وربما ما ذكره ادوارد سعيد عن جاك بيرك وصديقه ماكسيم رودنسون في هذا المعنى قد يفي بالغرض، لقد ذكر سعيد أن الرجلان "قد حررا نفسيهما من السترة المفصلة العقائدية القديمة(بتصرف) فتدريبجاك بيرك وماكسيم رودنسون يقف على قدم المساواة مع أكثر الأنماط الموجودة صرامة وانضباطا، غير أن ما يمنح الحيوية لتوجهاتهما هو وعي الذات المنهجي لديهما. فإذا كان الاستشراق تاريخيا معتدا بنفسه، معزولا بمناعته مفرطا في الثقة، وضعيا بطرقه ومقدماته، فإن إحدى الطرق الذي يستطيع المرء بها أن يفتح نفسه لما يدرسه في الشرق أو عن الشرق هي أن يخضع منهجه انعكاسيا للتحليل النقدي المتقصي، وهذا ما يميز بيرك ورودنسون، كل بطريقته الخاصة. فما يجده المرء في عمليهما هو دائما وقبل كل شيء حساسية مباشرة للمادة الماثلة أمامها، ثم امتحان ذاتي مستمر لمنهجها وممارستهما ومحاولة ذائبة لإبقاء عملها قادرا على الاستجابة للمادة لا لتصور مذهبي مسبق"[51].

ما نفهمه من هذا الاقتباس ونسجله هنا على سبيل الخلاصة والختم لهذه الورقة، أن جاك بيرك ليس فقط ذلك الباحث المتمرس الذي وهب نفسه دون كلل ولا ملل لخدمة المعرفة السوسيولوجية والأنثروبولوجية في المغرب والمشرق على حد سواء، إنما هو أيضا يعتبر مرآة عاكسة ألقت بظلال العالم العربي على الضفة الأخرى ودعت بذلك الى تجسير المسافة وتكثيف التبادل والاستفادة من الإرث الإنساني من غير هيمنة ولا استغلال. فهل من بعد هذا شك أن إنجازات الرجل وإضافاته العلمية لم تكن في صالح المعرفة

السوسيولوجية والأنثروبولوجية بشكل عام ولا في فائدة العالم العربي والمغاربي على وجه خاص؟!.

المراجع والهوامش:

[1] Ben Salem .L ; Jaque Berque (1910-1995) cahiers de Tunisie N : 1653 trim.1993,pp.12-13.

[2] بحسب رواية بوسكيه فإن بيرك قد كان مرحبا به من قبل حاكميه ومحكوميه على حد سواء، لكن هذا الأمر قد نفاه بيرك مؤكدا عكس ذلك أنه كان منذ سنة 1944 ضحية سخط وامتعاض من قبل مسؤوليه ، الشيء الذي تسبب في نفيه الى أعالي الأطالس الكبير.Berque, Mémoire des deux rives, Paris, Seuil. p.114.

[3] كان بيرك متأثرا بكتابات أستاذه Louis Gernet خصوصا في أطروحته التي أنجزها سنة 1917 والتي تحمل عنوان: Le développement de la pensée juridique et morale en Grèce حيث اقتبس منها بيرك مفهوم الماقبل القانون "prédroit" الذي أعاد توظيفه في أطروحته الخاصة بالبنا الاجتماعية في الأطلس الكبير.

[4] ما بين سنة 1984 وسنة 1985 أوكل J .-P Chevénement الذي كانت تجمعه ببيرك قرابة دم، مهمة البحث في مكانة أبناء المهاجرين ضمن النظام التربوي، لقد قبل بيرك بعد تقاعده من عمله في المغرب بتلك المهمة كما قبل قبلها العمل كمستشار للوزير ما بين سنة 1981 وسنة 1982. ذات الوزير الذي تولى حقيبة البحث العلمي حمل بيرك بعدها مسؤولية التعاون العلمي مع العالم الثالث.

[5] J. Berque, 1989, Mémoires des deux rives, Paris, Seuil. P.182.

[6] J. Berque, 1975, « Entrée dans le Bureau arabe » in Nomades Vagabonds, Paris, UGE, 113-139(Causes communes 2, coll. 10/18); repris comme "Premier poste" et "Agir, rêver", in 1989, chapitres 3 & 4. P. 116.

[7] Frémeaux Jacques. Missionnaire en burnous bleu. In: Revue du monde musulman et de la Méditerranée, n°83-84, 1997. Enquêtes dans le bibliographie de Jacques Berque - Parcours d'histoire sociale. pp. 67-73; doi : 10.3406/remmm.1997.1772 http://www.persee.fr/doc/remmm_0997-1327_1997_num_83_1_1772

[8] المرجع نفسه، 1975، ص، 116.

[9] مرجع سبق ذكره، 1997، ص، 114.

[10] المرجع نفسه، 1975، ص، 116.

[11] Berque Jacques. Cent vingt-cinq ans de sociologie maghrébine. In: Annales. Économies, Sociétés, Civilisations. 11e année, N. 3, 1956. pp. 296-324; doi : 10.3406/ahess.1956.2554.http://www.persee.fr/doc/ahess_0395-2649_1956_num_11_3_2554. p. 305.

[12] المرجع نفسه، 1956، ص، 305.

[13] المرجع نفسه، 1956، ص، 189.

[14] وعن بُعد أيضا ينقل بيرك ذلك عن W. Marçais . المرجع نفسه، 1965، ص،194.

[15] W. Mac Guskin de Slan (TRAD), (1801-1878) , Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun (732-808 de L'Hégire) (1332-1406 de J. C) (1863) deuxième partie. Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1936, 494 pages.

[16] اللف هو تعبير بري غائي، يقصد به تشكيل الأحلاف بغرض ضمان وظائف اجتماعية محددة أو تحقيق أهداف خاصة تتحول بدورها الى غاية في حد ذاتها يعمل اللف على تجسيدها. أنظر: Mohamed BERDOUZI , Structure du Maroc pré-Colonial : Critique du Robert Montagne, (Mémoire pour l'obtention du diplôme des études supérieures es-sciences politiques), Edition La croisée des Chemins, Rabat, Novembre 1981

[17] J.Berque,1954, "Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine ?" in : Hommage à Lucien Febvre, Paris, 261-271 (rééd. in Maghreb, histoire, société, Alger-Gombloux, Sned-Duculot, 1974). P.261.

[18] المرجع نفسه، 1954، ص،264.

[19] المرجع نفسه، 1954، ص، 264.

[20] المرجع نفسه، 1954، ص، 264.

[21] المرجع نفسه، 1954، ص، 226.

[22] المرجع نفسه، 1954، ص، 264.

[23] المرجع نفسه، 1954، ص، 270.

[24] المرجع نفسه، 1954، ص، 271.

[25] المرجع نفسه، 1954، ص، 271.

[26] المرجع نفسه، 1954، ص، 271.

[27] Berque, 1975, p.349.

[28] لقد رفض بيرك في ما بعد أطروحة جلنر الاثقسامية والتي لم يرى فيها سوى الوجه الآخر لأطروحة دوكايم القائمة على مفهومي التضامن الآلي والتضامن العضوي وكذلك أطروحة R. Montagne الكولونيالية، اللذان اعتمد عليهما جلنر في بري وصياغة طرحه، أنظر: J.Berque, 2011, OPERA MINORA « Islam populaire et Islam purifié ». Compte rendu de Ernest Gellner, Muslim Society, Times Literary Supplement, 11December, 1981

[29] Berque, 1988, p.32

[30] LEFEBURE, Claude, 1971, Le cinquième, la tribu, l'os, le foyer : introduction à l'étude de la segmentation sociale chez les Ayt cAtta, maîtrise spécialisée d'ethnologie, Université René Descartes- Paris V. p. 20.

[31] المرجع نفسه، 1997، ص، 98.

[32] المرجع نفسه (نقلا عن بيرك، 1955)من صفحة 131الى صفحة 134.

[33] المرجع نفسه (نقلا عن بيرك، 1955) من صفحة 257 الى صفحة 259.

[34] Berque, 1978:131, 175, 213,454.

[35] Berque, 1978 :392.

[36] Berque, 1978. Structures Sociales du Haut- Atlas. 2éme éd. revue et augmentée. Paris : Presses universitaire de France. (Sociologie d'aujourd'hui).

[37] محمد الدهان، (2009)، "جاك بيرك والمغرب"، إضافات: العدد السابع/ صيف 2009.

[38] Berque, 1978 :p.62.

[39] Mairies Akar, 1980, « Entretiens avec », ARABIES . Paris, Stock, édit augmentée.

[40] Berque, J.1938, Dans le Maroc nouveau : Le rôle d'une université islamique. Annales d'Histoire Economique et Sociale, 51, 1938,193-207.

[41] Berque, J.1972. "Fès ou le destin d'une médina", Cahiers internationaux de Sociologie, LI, 1972 : 5-32; repris in De L'Euphrate. .. 1978, 1 : 380-415.

[42] Berque, J, 1949, Ville et université : Aperçu sur l'histoire de l'École de Fès, Paris, Sirey, 1949 (tiré à part de la Revue Historique de Droit Français et Étranger, 26 : 64-1 17) ; repris in Maghreb, histoire. 1974, ch. 3 : 35-47.

[43] Berque, J.1955. Structures sociales du Haut-Atlas, Paris, PUF, 472 p. ; 2e édition augmentée d'un "Retour aux Seksawa" (en coll. avec Paul Pascon), ibid., 1978, 520p. (Bibliothèque de sociologie contemporaine).

[44] Berque, J.1958. "Médinas, villeneuves et bidonvilles", Cahiers de Tunisie, 21-22, 1958 : 5-42; repris in Maghreb, histoires... 1974, ch. 7.

[45] A. Katibi : Penser le Maghreb, SMER, Rabat, 1993.

[46] حسن المجاهيد، سوسيولوجيا العالم العربي لدى بيرك، مراكش (المغرب) الطبعة الأولى 2012. ص، 183. لعبارة الأخيرة "شرق العلوم الانسانية" نقلها المؤلف عن بيرك في كتابه Les Arabes d'hier à demain

[47] حسن المجاهيد (نقلا عن) محمد وقيدي العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، منشورات عكاظ، المحمدية، 1988 ص،ص:181-222.

[48] نفس المرجع، ص: 198.

[49] حسن مجاهيد محمد(نقلا عن) جاسوس: "العقلانية والمشروع العربي"، الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، المغرب، العدد: 27/26، 1986، ص: 219.

[50] ABDERRAHMANE MOUSSAOUI « L'Université algérienne ente le local et le globale : regards emphatiques », Djamel Guerid (S/D) 2014, Repenser L'Université, Algérie, Arak Edition, p. 21.

يمكن العودة الى ذات المفهوم (الوطنية المنهجية) الى كتاب: Urlich Beck, 2006, Qu'est-ce que une cosmopolite ?, Paris, Flammarion.

[51] ادوارد سعيد (نقلا عن) حسن المجاهيد، الاستشراق، النعرفة، السلطة، الانشاء، نقله الى العربية كمال أبو ديب، الطبعة الأولى، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت- لبنان. 1981. ص، 47.